

المواجهة بين الفلسفة والفكر الأسطوري اليوناني The confrontation between philosophy and Greek mythological thought

*- د. جورج الفار_ الجامعة الأردنية

*- راما أبو صافي _ الجامعة الأردنية

* J.alfar@ju.edu.jo

تاريخ القبول: 2024/11/15

تاريخ الإرسال: 2024/08/20

الملخص:

قمنا في هذا البحث بتتبع ميلاد وتطور الأديان اليونانية من جهة، وتتبع ميلاد الفلسفة والعلم من جهة أخرى لنرصد نقاط الاحتكاك والنقد الموجه من الفلسفة إلى الأساطير والأديان اليونانية عند أهم الفلاسفة والمدارس الفلسفية الهلينستية، لنخلص إلى نتيجة مفادها أن الفلسفة لم تقض تماماً على الأساطير والأديان عند اليونانيين ولكنها وجهت نقداً عميقاً ولاذعاً لأساطيرهم ومعتقداتهم مما أشعرهم باختلال تلك المعتقدات مع رؤيتهم لتناقضاتها في ضوء العقل الفلسفي والعلمي، مما جعل تلك الأساطير والأديان قابلة للسقوط النهائي بعد فترة زمنية قصيرة.

الكلمات المفتاحية: الفلسفة، الدين، الأساطير، اليونان، النقد.

Abstract:

In this research, we traced the birth and development of Greek religions on the one hand, and the birth of philosophy and science on the other hand. With a desire to monitor the points of conflict and criticism directed from philosophy to Greek myths and religions among the most important Hellenistic philosophers and philosophical schools. To conclude that philosophy has not eliminated myths and the religions of the Greeks, but it directed a deep and stinging criticism of their myths and beliefs. That triggered the sensation of the imbalance of those beliefs with their vision of their contradictions in the light of the philosophical and scientific mind. It made these myths and religions subject to final fall after a short period of time.

Keywords: Philosophy, religion, myths, Greece, criticism.

مدخل:

ثمة مواجهة وقعت في القرن السادس قبل الميلاد في بلاد اليونان، فقد نبئت فيها نبئة جديدة سُميت الفلسفة، تُجدد العقل وتدعو إلى التفكير والبحث عن الأسباب وعن الوجود ذاته، وكانت بلاد اليونان هذه مرتعاً لأساطير وأديان عديدة تنادي بالطاعة والتسليم بالمعتقدات الدينية ووجود الآلهة، فقامت مواجهة بين النبئة الجديدة التي كبرت مع الأيام ومع المعتقدات القديمة التي ترسخت منذ مئات السنين.

لم تستطع النبئة الجديدة أي الفلسفة، اقتلاع الشجرة الهرمة الكبيرة، ولكنها نبشت في جذورها وساقها وثمارها وأضعفتها جداً بحيث أصبحت قابلة للسقوط في أي لحظة. هذا ما قمنا به بهذا البحث بتتبع ميلاد وتطور الأديان اليونانية من جهة، وتتبع ميلاد الفلسفة والعلم من جهة أخرى لرصد نقاط الاحتكاك والنقد الموجه من الفلسفة إلى الأساطير والأديان اليونانية عند أهم الفلاسفة والمدارس الفلسفية الهلنستية، لنخلص إلى نتيجة مفادها أن الفلسفة لم تقضي تماماً على الأساطير والأديان عند اليونانيين ولكنها وجهت نقداً عميقاً ولادعاً لأساطيرهم ومعتقداتهم مما أشعرهم باختلال تلك المعتقدات مع رؤيتهم لتناقضاتها في ضوء العقل الفلسفي والعلمي، مما جعل تلك الأساطير والأديان قابلة للسقوط النهائي بعد فترة زمنية قصيرة، فمع ظهور المسيحية تهاوت تلك الأديان والأساطير واجتاحت المسيحية حصونها في عقر دارها. وتجاوز الفكر الفلسفي والعلمي بأشواط طويلة الفكر الأسطوري اليوناني وتركه خلف ظهره ليتم الانتقال من مرحلة الفلسفة اليونانية القديمة إلى مرحلة جديدة (فلسفة العصور الوسطى) من مراحل التاريخ ومراحل تطور العقل الفلسفي.

مشكلة البحث:

كان اليونانيون مثلهم مثل باقي الشعوب في المنطقة لهم أديان ومعتقدات تطورت مع الزمن، بدأت بأديان طبيعية حيث كانوا يعبدون قوى الطبيعة ويقدسونها، ثم تطورت واختزلت بمجموعة من الأساطير والمعتقدات بالآلهة الأولى لجبل الأولمب اليوناني المقدس (جيل زيوس والآلهة من إخوته، إلى الجيل الثاني من آلهة الأولمب من أبناء وبنات زيوس وزوجاتهم) ومن الأديان كالأودسية إلى الأورفلية إلى الدينوسيسية إلى الفيثاغورية، بدأت هذه

الأديان في القرن العشرين قبل الميلاد واستمرت ربما إلى القرن الخامس الميلادي. في خضم ذلك وفي القرن السادس الميلادي ظهرت الفلسفة على يد طاليس الأيوني والفلاسفة الأيونيين ومن بعده جاء فلاسفة آخرون واستمرت الفلسفة اليونانية في العصور الهلنستية وانتشرت وانتقلت في أرجاء العالم القديم إلى أن وصلتنا اليوم.

هنا تطرح الإشكالية الفلسفية: لماذا لم تستطع الفلسفة اليونانية العقلانية القضاء على الفكر الأسطوري الديني عند اليونانيين؟

- هل مرد ذلك لقوة الأسطورة والفكر الديني والمعتقدات عند اليونانيين؟
- أم لضعف الفلسفة ولعدم قوتها العقلية التي تمكنها من الانتصار على الأسطورة والفكر الديني؟

- هل دار في خلد الفلسفة أن تقوم وتمحق الأسطورة اليونانية أم كان عليها تطويعها والاستفادة منها؟

- هل حصلت مجابهة قوية ومباشرة بين الفلسفة والفكر الديني القوي (كما حصل مثلاً في محاكمة سقراط)؟

- هل استطاع الأبيقوريون بدعوتهم لعدم الخوف من الآلهة وعدم الخوف من الموت، تقويض هذه الآلهة وإقناع اليونانيين بعدم الخوف من الآلهة؟

كلها إشكاليات سيقوم البحث بالإجابة عليها إجابات مقنعة تستقصي الحد الأدنى من التاريخية والتحليل السليم لحلها.

أهمية البحث:

تأتي أهمية البحث من كونه يستقصي مشلكة من أهم المشكلات التي واجهتها الفلسفة في تاريخها أي علاقتها بالفكر الديني، وتذهب بنا إلى موطن ظهور الفلسفة الأصلي في (اليونان) حيث تمت المجابهة الأولى بين الفلسفة اليونانية والفكر الديني المنتشر في اليونان آنذاك، لتحلل بشكل موضوعي ومنهج علمي تاريخي تلك المجابهات وقوتها والنتائج التي تمخضت عنها.

كما أن هذا البحث يلقي ضوءاً كافياً على الأساطير والأديان الكبرى في اليونان وعلى نقاط احتكاكه مع الفلسفة بنت أرضه ووطنه، ويحكي قصة تلك المراجعة التي تمت بينهما ليخلص إلى نتائج علمية غير متوقعة وغير معتادة.

المقدمة:

ليس من الصحيح القول أن اليونانيين عرفوا الفلسفة ولم يعرفوا الدين، بل الصحيح أن اليونانيين عرفوا ديانات متعددة ومتنوعة ولكن لم تقتصر معرفتهم على تلك الديانات، بل أفسحوا المجال للعقل الفلسفي والعلمي لبحث في الوجود والكون والإنسان دون اللجوء إلى التفسير الديني كثيراً بل استعملوا عقلمهم بغزارة وباستقلالية عن الفكر الديني في مرات عديدة، وربما هذا ما ميزهم عن باقي الحضارات القائمة في زمانهم، كالحضارة الفارسية التي دانت بالزرادشتية والحضارة الفرعونية التي صبغت بعباداتهم واهتمت بالخلود وبما بعد الموت، وحتى بالحضارات الصينية والهندية.

فهل صحيح أن الفلسفة اليونانية تميزت بطابع عقلي محض؟ وهل صحيح أن الفلسفة الإغريقية وضعت حداً للفكر الديني والميثولوجيا وأنها بذلك قد حررت العقل من شروطه القديمة كما يتساءل فراس السواح في كتابه "دين الانسان"؟¹

فهل نظر اليونانيون إلى الدين بأنه شكل أدنى من أشكال النظر العقلي، بينما الفلسفة هي شكله الأفقي والأعلى؟² ربما فهم الفلاسفة اليونانيون أن الدين لا يكفي وحده لإجابة تساؤلات الوجود الكبرى لدى الإنسان الذكي، فراحوا يفكرون بطريق جديدة منفصلة عنه ولكنها ليست بعيدة عنه تماماً، عندها اكتشفوا العلم والفلسفة ووجدوا فيهما قوة البرهان والوضوح والعقلانية التي تفوق العقلانية الدينية بدرجات، فراحوا يطورونها ويضبطونها بضابط المنطق البرهاني المتوفر في عصرهم وربما انتقل بعضاً منهم مثل الفلاسفة الطبيعيين إلى البرهان العلمي في فجر العلم غير الناضج بعد.

وهل أحدث الفلاسفة اليونان قطيعة معرفية مع الفكر الديني المعروف لديهم؟

كلا، لم يرقم الفلاسفة اليونان بإحداث قطيعة معرفية ولكن القفزة الفلسفية والعلمية التي أحدثها الفلاسفة الطبيعيون اليونان، جعل فكرهم يتجرد رويداً رويداً من الأسطورة الدينية مما حدا وشجع ببعضهم إلى السخرية من الآلهة والمطالبة بعدم الخوف منها كما فعل الفيلسوف أبيقور وغيره من الفلاسفة.

ربما أهم إنجاز قام به الفلاسفة اليونانيون هو بناء منظومات أخلاقية عقلية بعيداً عن الدين، فقد أدركوا مبكراً أن العقل هو مصدر الأخلاق.

1/ الأسطورة والديانات الرئيسية عند اليونان :

لا يخلو الفكر الديني اليوناني من الأسطورة أو بالأحرى يمكن رد أصل هذا الفكر إلى الأساطير اليونانية الكثيرة والمتنوعة، ومع وجود فرق واضح بين الأسطورة والخرافة، فلا تخلو أساطير اليونان من خرافات تتحدث عن نشأة الكون وتصور الآلهة وصفاتها وعلاقاتها بالإنسان وقوتها ومدى تأثيرها على حياته، وتلك الأساطير اليونانية منقولة عن الشعوب الأخرى المجاورة لهم كالكنعانيين والمصريين والفرس، وترتقي بعضها لنجد أصولها في الأساطير الهندية، وقد أُجريت عليها بعض التعديلات الطفيفة على فترات طويلة من الزمن مثل إعطاء أسماء يونانية للآلهة والأبطال في الأساطير... إلخ لتناسب اللغة والثقافة اليونانية.

أشهر هذه الأساطير على الإطلاق هي الإلياذة والأوديسا المنسوبتين إلى الشاعر الإغريقي هوميروس، والواضح من الدراسات الحديثة أن الإلياذة والأوديسا هما مجموعة من القصص الأسطورية المنتحلة؛ معظمها مقتبس من الفلكلور الشرقي الكنعاني والمصري على الأخص، أُجريت عليها تعديلات في حقب متعاقبة لتناسب الذوق اليوناني، ومهما كانت الآراء حول أصل الإلياذة والأوديسا، فلقد أصبحت الملحمتان دستوراً للإغريق، وركيزة أساسية يستند عليها الإغريق في علاقاتهم مع الآلهة³. وهناك أساطير أخرى مثل "الأعمال والأيام" و"أنساب الآلهة" اللتان تنسبان لـ "هيسيودس" الذي اعتبر صانعاً للأساطير الإغريقية⁴. كما أن الشاعر بندروس الذي ولد في القرن السادس قبل الميلاد حوالي سنة ٥٢٠ ق.م مؤلف "أناشيد النصر" يجمع ما بين الملحمي والأسطوري. بينما فضل هيرودوتوس كتابة النثر على الشعر فكتب أخبار الحروب اليونانية الفارسية ومن الصعب تمييز ما هو تاريخي أسطوري منه⁵. كما استخدم الفيلسوف أفلاطون بعض تلك الأساطير في شروحاته (أسطورة أهل الكهف) وقد نقد الكثير منها أيضاً.

ما يهمنا أن الأساطير تُعتبر الطور الأول لنشأة الديانات عند اليونان كما قال "ويل ديورانت"، الذي اعتبر أن الديانات اليونانية لم تتخلص قط من الأسطورة بل على العكس من ذلك كانت تلك الديانات امتداداً للأساطير في محاولتها لإيجاد تبريرات معقولة لها⁶. أما الأهمية الكبرى للفكر الديني اليوناني في مراحل تطوره فتكمن في عدة مظاهر:

١- أنسنة الديانة اليونانية لنفسها فقد ظهرت الآلهة في العصور القديمة على شكل حيوانات ثم تغيرت واتخذت أشكالاً إنسانية، فبشرية الآلهة اليونانية ذات أهمية كبرى⁷.

٢- تعددية الآلهة في الديانة اليونانية وديمقراطيتها، فهي تحكم من خلال مجلس الآلهة الذي يرأسه زيوس،⁸ ويصوت به باقي الآلهة وهو صورة عن مجتمع يوناني أحب ومارس الديمقراطية ولم يتحكم به إمبرطور أو فرعون مستبد واحد أوحد على شكل إله.

٣- الآلهة التي كانت على شكل بشر هي أعظم الآلهة اليونانية والفارق بين الآلهة والبشر هو فرق في الدرجة فما هو موجود عند البشر بشكل ناقص موجود عند الآلهة بشكل كامل، وكأن الآلهة الصورة الأمثل للإنسان، وكأنهم اخترعوا هم آلهتهم على صورتهم ومثالهم "فيورباخ"، وعلى هذا فإن الآلهة ليست مهددة بما يهدد به البشر، وليست ملتزمة بالتزاماتهم أيضاً⁹

٤- تعددية الآلهة وديمقراطيتها وتعددية الأديان وعدم وجود دين واحد شامل حاكم أوحد مستبد، أتاح مجالاً للحرية وتعدد الآراء، وفي هذا الجو من الحرية النسبية وجدت الفلسفة لها تربة لتنبت فيها.

٥- خلت الديانات اليونانية من "نصوص مقدسة" و"وحي" و"أنبياء" وليس هناك عقيدة موحدة بل تنوع كبير في المعتقدات وفي مبادئ الأخلاق، لذلك في الحالات القليلة التي حوكم فيها أحرار الفكر من فلاسفة، فلم تكن لأسباب دينية بل لأسباب سياسية في الغالب.¹⁰

6- اهتمت الديانة اليونانية في الحياة الدنيا، فليس هناك مكان لعالم آخر يعلو هذه الحياة، تناولت ما يتصل بشؤون الناس في عملهم وحروبهم وسلامة أبدانهم وكانت جزءاً من سياسة الدولة¹¹

عبد الإغريق في أول تاريخهم الممتد إلى ألفي سنة قبل الميلاد مظاهر الطبيعة المختلفة مثل باقي الشعوب البدائية قبل أن تتمدن، فقد خافوا منها أولاً وحاولوا إرضائها ثانياً طمعاً منهم بخيرها فأوجدوا إله للخصب والمطر وكان هناك إله ومعبود لكل خصوصية من خصوصيات حياتهم.¹²

ولم يعتقد الإغريق على العكس من الشعوب الأخرى أن آلهتهم أوجدت الكون، بل أن الكون أوجد الآلهة، آلهتهم لها طباع البشر وهفواتهم ونزواتهم ولكن تميزوا عنهم في قدراتهم الخارقة وخلودها. فلم يطمع الإغريق بالخلود أبداً، بل يمكننا القول إن آلهتهم تشبههم وتشاركهم حياتهم الاجتماعية واليومية. وقد نظر علماء الأنثروبولوجيا الدينية إلى فكرة الألوهية عند اليونان على أنها أفضل النماذج التي تدلل على ارتباط فكرة التأليه بطبيعة

المجتمع وثقافته، فإن تعدد الآلهة يرجع إلى تعدد الطبيعة الاجتماعية والسياسية والجغرافية¹³

تقسم الآلهة عند اليونان إلى نوعين حسب الحقب التاريخية:

١- الآلهة ما قبل الأولمبية: وهي الآلهة القديمة التي تنحدر من آلهة البيولوجي والكون وعناصره الأربعة، تبدأ بوجود الخاؤس (العماء) وتنتهي بظهور زيوس، ولم تكن لهذه الآلهة فاعلية كبيرة ولم يكن الدين متجذراً بعد¹⁴، وعادة ما كانت آلهتها متعاكسة ومتضادة، فبينما كان هناك إلهة للحب هي "إيروس" كان هناك إلهة للكراهية هي "انتيرا".¹⁵

وكان هناك إلهة للسماء "أورانوس" وإلهة الأرض هي "ريا" زوجة كرونيوس وأم زيوس، وقد حفظ لنا الشاعر هسيودوس أقدم رواية يونانية عن نشأة الخليفة ووصفاً لمولد العالم، وكيف ولد إله من إله في كتابه "أنساب الآلهة".¹⁶

٢- آلهة الأولمب: جمع اليونانيون في مرحلة أكثر تقدماً في أسرة يرأسهم زيوس الذي يعيش مع أسرته في جبل الأولمب العظيم في شمال بلاد اليونان¹⁷، وهكذا تقاسم زيوس مع أسرته السيطرة على العالم، فكان منهم جيل أول هم جيل زيوس وأخوته ومعه الآلهة الستة، أبناء كرونيوس وريا ولذلك سموا بالآلهة الكرونودين. أما الجيل الثاني من أبناء زيوس وهم ثلاث (أرتيمس، أفروديت، أثينا) وثلاث ذكور هم (أريس، أبولو، هيرميس).

وقد عرف اليونانيون ما يسمى بالدين الظاهري لعامة الناس، يخلو من الغموض والسرية، والدين الباطني Gnosis ويقوم أتباعه بتأدية طقوس خاصة بهم ويسموا بالعرفانيين الذين يمزجون بين الثقافة والدين، وينشدون حياة روحية سامية طمعاً أو على أمل الخلود.

ربما تكون- "الإليوسية" أقدم ديانة عند اليونان، تنسب إلى مدينة إليوسيس كانت هذه الديانة تهتم بالحياة ما بعد الموت، أي الخلود وتُبشر به كحل لتناقضات الحياة. ولديها مجموعة من الطقوس مثل الصيام والتطهير والحج إلى معبد "ديميتر" الإله الأسطوري المعبود سيراً على الأقدام، ومن أهم طقوس تلك الديانة تناول "العشاء الرباني" ويقوم المؤمنون بالرقص والغناء حتى يتوحدوا مع الإله ديميتر.¹⁸

- الديونيسوسية، نسبة للإله ديونيسوس، إله الخمر والنبات والجنس والمسرح والجنون المقدس، وفيها معتقد عن القيامة وتحقيق الانتصار على الموت، فديونيسوس يموت ثم يبعث حياً. لذا كان أهل الديانة يقيمون مهرجانات مليئة بالخمر والصخب وذبح القرابين،

فتنشأ حالة انفعال يسيطر فيها الخمر على العقل ويفقده توازنه، لذلك اعتبرت ديانة منفرة، إلى أن تحولت مع الزمن إلى ديانة روحية وأحلت السكر الروحي بدل السكر البدني.¹⁹ -الأورفية: أسسها أوروفيسوس وهي شخصية غامضة يمكن أن يكون رجلاً حقيقياً أو بطلاً وإلهاً خيالياً. آمنت أن الإنسان مركب من عنصرين متعارضين: من العنصر الطيطاني (المادي) وهو مبدأ الشر، ومن دم ديونيسيس وهو مبدأ الخير، وبأن الجسد قبر (سجن) للنفس وفسروا سقوطها في البدن كفارة لخطيئة أولية، وعلى المؤمن لها أن يتطهر من خطيئته، والتطهير عندهم يقوم على الزهد وتأدية طقوس معينة تحت إشراف رجال دين أوفيين، وإذا حافظ الإنسان على هذه الطريقة فإنه يتحرر من الجسم ويتمتع بصحبة الأخيار حيث السعادة الدائمة وهذا أمر عسير، لا تكفي له حياة واحدة لذلك آمنت الأورفية بالتناسخ (تأثراً بالديانات الهندية) أي هجرة الأرواح من جسد إلى آخر بعمليات متتابعة الحلقات من الولادة إلى الموت. أقامت الأرفية لأتباعها جمعيات ترتبط بينها برابطة التلمذة والاختيار الحر وليس برابطة الدم، ويعتقد أن سقراط وتلميذه أفلاطون كان لهما علاقة بهذه الديانة وربما نقلا بعض من أفكارها حول أن الجسد سجن للنفس، وربما إيمانها بالخلود مرده إلى أن هذه الديانة المنتشرة في زمانهما.

- الفيثاغورية: أسسها الفيلسوف فيثاغورس أبو الرياضيات في القرن الخامس قبل الميلاد، أكثر الشخصيات غموضاً واستثارة للعجب. جمع تلاميذه حوله وشيئاً فشيئاً رأى به تلاميذه ظلاً للإله أو حاملاً لرسالة سماوية، وكان لها عبادات وطقوس وهكذا أصبحت القيثارية جماعة ذات طابع ديني، تمتاز بنزعتها السرية فلم يكن مسموح لتلاميذها إفشاء أسرار هذه المدرسة، وعند الإشارة إلى فيثاغورس فإنهم يطلقون عليه لقب المعلم.

تأثر فيثاغورس بالديانة الأرفية واليونييسيف فاستوحى أسس هذه الديانة من أفكار أورفيس وديونيسيسوس إلا أن أهم ما يميز هذه الديانة هي نقل هذه الأفكار من الطرح الأسطوري إلى الطرح الطبيعي المجرد، ويمكننا أن نقول أن تلك المحاولات كانت محاولة لصب الديانة الأرفية في قالب عقلي²⁰، وبناء على ما سبق فقد كان أفلاطون يفكر بشكل رياضي في كل ما يتناول من ظواهر وكل ما يصادف من مشكلات، ومثال على ذلك فهمه للتصور الإلهي من خلال متجه نشأة الكون وربطه بالعدد، وما العدد سوى كميات وقيم رياضية تستخدم في التطبيقات الهندسية، ومن هذه النقطة لاحظ فيثاغورس أن الأشكال الهندسية جميعها

تشارك في عدة أمور مثل أنها تخلو من خصائص مادية (مثل الكتلة) وأن جميعها تشغل حيزاً في الفضاء (المكان) ولكنها تختلف في الكيف أو التكوين الهندسي (الشكل) ، ومن هذا المنطلق ، أمسى التوجه لديه للبحث عن ماهية هذا التكوين الهندسي وشكله الناتج بمعزل عن مكونات هذا الشكل (المادة) وخصائصه المادية .

أما المتجه الآخر الذي استند عليه لفهمه للتصور الإلهي هو مذهبه الديني وعلى هذا ، فقد مزج فيثاغورس الرياضة باللاهوت ، ورد العالم إلى الواحد ، حيث أن الواحد فوق الأعداد والموجودات ومصدرها الوحيد. أخذت القيثارية كثيراً من أفكار من سبقوها ، وكانت تعاليمها تدعو إلى حركة إصلاح جديدة تأخذ من جميع التيارات الموجودة ، ففيها طقوس من بابل ومصر وآسيا وتراقيا ومن العقائد الموجودة عند اليونان إلى جانب الألفية على وجه الخصوص ²¹ ، التي أخذت منها بعض الطقوس الخاصة بالطهارة التي تؤدي إلى خلاص النفس مما أسموه " عجلة الميلاد " ، أي عودة الروح إلى إنسان أو حيوان ، وقد عبر فيثاغورس عنها "بالتناسخ" وجوهر عقيدة التناسخ عند النيسابوريين بأن النفس ذات جوهر إلهي وهي خالدة ، أما الجسد يفنى ووجود النفس فيه يعد عقاباً لها على ذنب اقترفته ، وإذا ما انفصلت عنه تبقى خاضعة لضرورة الحلول في بدن آخر ، فالكون بالنسبة للنيسابوريين مليء بالأرواح التي تنتظر حلولها في الأبدان من جديد ²² ، فالنفس لابد لها أن تجتاز سلسلة طويلة من أشكال الوجود ، وسمات حياتها تكون مقرونة بأفعالها في الوجود السابق ، فإذا كانت النفس شريرة تكون نتيجة لأفعالها السابقة .

يرى فيثاغورس أن الطريق الوحيد الذي تستطيع فيه النفس أن تتخلص من عجلة الميلاد المستمرة هو عملية التطهير ، التي تشمل النفس والبدن ، فوضع فيثاغورس وتلامذته نظاماً لتطهير النفس يتم بواسطة الموسيقى والرياضة والاهتمام بالدراسات العلمية ، وبهذا تتمكن النفس أن تعيش في العدالة والقداسة التي تجد فيها حريتها ²³ ، أما تطهير البدن فيكون بواسطة ممارسة الرياضة الجسدية ويعني ذلك عند الفيثاغوريين قمع الشهوات ونزوات البدن ، وعدم السماح للمؤثرات الخارجية بالسيطرة على النفس ، فإذا اتبع الإنسان هذه العملية تحرر من عجلة الميلاد المستمرة ، وبهذا يصل إلى السعادة الأبدية ، وهذه السعادة جزءاً من طبيعة النفس لأن النفس إلهية .

لعب فيثاغورس دوراً هاماً في مزج العقيدة الدينية بالتدليل العقلي، فأضافت على الديانة الأورفية بعد أن كانت قواعدها تقتصر على اللباس والطعام وبعض العبادات، الاشتغال بالعلم الرياضي والموسيقى التي تطهر النفس وتصفىها.

تأثر أفلاطون بالمبادئ الفيثاغورية سواء في ردهم العالم إلى العدد الواحد أم في مذهبهم الديني، فقد وصف بعضهم هذا التأثير بالقول بأن ما يبدو أفلاطونياً ستجده عند التحليل فيثاغورياً في جوهره، حيث أن جوهر الفلسفة الأفلاطونية وهي القول بوجود عالم أزلي ينكشف للعقل ولا ينكشف للحواس، مستمدة من فيثاغورس²⁴.

2/المواجهة بين الدين والفلسفة الأولى:

عندما سُئل طاليس الأيوني الذي يُعد أول فلاسفة اليونان من أين أتى هذا الكون...؟ أو ما هو أصل الكون...! كانت لديه ولدى معاصريه إجابة دينية حاضرة وهي "الآلهة صنعت ونظمت هذا الكون"، لم يكتفِ طاليس بهذه الإجابة الدينية بل راح يبحث في الكون والمادة ذاتها عن سر الكون والمادة، وبعد تفكير ومشاهدة قال: "أن الماء هو أصل الكون"، وبهذا يكون طاليس قد افتتح مرحلة جديدة في النظر والبحث، فهو عند الكثير من المؤرخين نقطة تحول من التفكير الأسطوري إلى التفكير الفلسفي في القرن السادس قبل الميلاد، امتاز طاليس باستغنائه عن أي تعبير أسطوري أو رمزي في تفسيره لأصل الأشياء، فالماء عنده هو جزء مشاهد من عالم التجربة، وبذلك يكون قد وضع المسألة الطبيعية وضعا نظريا فشق للفلسفة طريقها²⁵. جاء بعده انكسميندرس وانكسمانس الأيونان (نسبة إلى مدينة أيونا في آسيا الصغرى والتي كانت تُعتبر جزءاً من إقليم ملطية اليوناني)، فاهتموا في أبحاثهم بالطبيعة والمادة وحاولوا هم أيضاً الإجابة على نفس السؤال بمقاربات مختلفة فقد قال انكسمندروس بالعناصر الأربعة، اثنين جافين، هما: الهواء والنار، واثنين رطبين، هما: الماء والتراب، وقد نبذ انكسمندرس قصة الخلق الأسطورية وقال بفكرة تطويرية فقال: بأن الإنسان كأي حيوان هو سليل الأسماك²⁶، وبذا يكون قد استبدل فكرة الخلق بفكرة التطور التي كانت ما تزال فكرة جنينية، ورأى أن العالم سيعود إلى الأبريون الذي نشأ عنه، لكنه لم يتخلص تماماً من الأفكار الدينية حيث فسر فكرة الانفصال بين الإنسان والعالم بفكرة الذنب أو الخطيئة الأولى التي يجب أن يكفر العالم عنها²⁷.

تكمن أهمية انكسميندرس من الناحية العلمية في أنه استطاع أن يرتفع بالبحث اللاهوتي إلى التجريد، فجعل العلم يتجاوز البحث في الأشياء إلى البحث في المفاهيم، ومفهوم الأيرون يشهد أهمية أنكسمندرس على التجريد الذي لم يعرف له مثيلاً من قبل²⁸ عزى انكسمانس أن أصل الكون نجده في الهواء وأن الهواء لا متناه ويحيط بالأرض وهو أسرع حركة وانتشاراً من الماء، وأن الموجودات تحدث في التكاثر والتخلخل، فإن تخلخل الهواء ينتج النار وعندما يتكاثر يصبح ريحاً ومن ثم سحباً فمطراً وتكاثر الماء ينتج تراباً. هكذا اتجه انكسمانس نحو العلم وأراد أن يوحد الأمور بعلّة واحدة هي الهواء وكان أقل الفلاسفة الأيونيين التجاءً للأساطير.

أهمية الفلاسفة الأيونيين تأتي بأنهم فلاسفة وعلماء حاولوا تخطي الإجابات الأسطورية والدينية إلى إجابات علمية وفلسفية، فذهبوا إلى الطبيعة نفسها ليجدوا أجوبة عن تساؤلاتهم، كان اهتمامهم في مشكلة الأصل وتكوين العالم، كما ذهب من قبلهم هزود وهوميروس لكن لم يتجهوا إلى التفسير الأسطوري، وقاموا بمحاولة تجريدية إذا نسب أنكسمندرس المادة إلى أصل *Aperion* ابريون وهي اللامتناهية، بينما فسر انكسيمانس بتناقض الحركة بتكاثر وتخلخل الهواء وتعمل بشكل آلي لا بإرادة أحد. هكذا حدث التطور بالفكر اليوناني بذهابهم نحو التفسير العلمي الخالص للظواهر وابتعادهم عن الإجابات الميثولوجيا الدينية.

*- الأسطورة والدين في الفكر السوفسطائي:

عادة ما يصور السفسطائيين اليونانيين بصورة سلبية لأنهم نفعيون وعدميين وكانوا يرتزقون من تعليمهم الناس الخطابة والجدل وإبطال المعارف الضعيفة والتشكيك بها، هكذا صوّرهم أفلاطون في محاوراته، ولكن هؤلاء السوفسطائيون أجبروا الفلاسفة اليونانيين مرات عديدة ومنهم (سقراط وأفلاطون) على البرهنة على ما يقولون وربما أجبروا أرسطو أن يضع قواعد التمنطق والجدل.

فقد عُرِفَت المدرسة السوفسطائية كمدرسة نقدية تعتمد الشك كمنهجاً ولذلك اتخذت موقفاً نقدياً من كل التراث الأسطوري اليوناني الذي يتحدث عن عالم الآلهة ويدخل الآلهة في حياة البشر.

واكتفى بعضهم باعتناق "اللا أدريّة" تجاه الآلهة ووجودهم، بينما أعرب البعض الآخر منهم عن موقف إلحادي من وجود الآلهة بوصفها أكاذيب من اختراع البشر مثل (دايجوراس السفسطائي) وركز السفسطائيون على فضح المتناقضات التي حوتها الأساطير عن صفات الآلهة والتي لا يمكن للعقل البشري قبولها.

سنختار منهم السفسطائي بروديكيس حوالي سنة ٤٦٠ ق.م وقد عاصر سقراط وقد تصادم هو الآخر مع السلطات الاثينية وله مؤلفان: في "الطبيعة"، وفي "الطبيعة والإنسان" يعد مؤسس علم المترادفات وتحليل الألفاظ، والدراسات اللغوية. وتكمن أهميته أنه طبق نظرياته اللغوية على المعتقدات الدينية اليونانية، فقام بتحليل الألفاظ والأسماء التي تطلق على الآلهة اليونانيين، فاكتشف أن أسماء أربعة من الآلهة المشهورين والمعبودين في اليونان هم (ديميتر، دينسيوس، بوسيدون، هافريستو) تعود كلها إلى ألفاظ تدل على حاجات الإنسان للحياة، فمثلاً اكتشف أن اسم الإله ديميتر، لا تعني إله الزراعة. ولا إله العالم السفلي، بل كلمة تعني الخبز. كما أن اسم الإله دينيوس ليس هو باعث الموت والحياة والذي يقوم في كل صيف. بل تعني اللفظة الخمر، أما اسم الإله بوسيدون فلا تعني إله الزلازل بل تعني الماء، والإله وهيفارستو لا تعني إله الحدادة وصانع السلاح إنما تعني كلمة نار. فعندما جمع هذه الألفاظ خرج بنتيجة أن الإنسان يؤله ويقدس الأشياء المفيدة لحياته، كما يفعل المصريون بعبادتهم لنهر النيل الذي يعتبر مصدراً لرزقهم ولحياتهم.

استنتج بروديكيوس أن الآلهة مصدر لأشياء نافعة، مما يعني أن الإنسان في سبيل مصلحته قدسها ورفعها إلى مستوى آلهة، فلا معنى وراء تلك العبادات والطقوس حيث إنها ليست إلا مظاهر سطحية كاذبة أعمال يشوبها النفاق²⁹. لذلك عندما يتنازع الطبيعة الإنسانية الخير والشر، فالإنسان هو الذي يختار ما يفعله وليست الآلهة هي التي تختار له مصيره كما صورتها الديانات.³⁰

لقد وجه السفسطائيون طعنة نجلاء إلى الأسطورة والدين في زمانهم لم يوجهها غيرهم من الفلاسفة أصحاب الأسماء الكبرى، فقد هدموا بعرق ما كان مقدساً لديهم بنقدهم العلمي الصارم لأصول الأسطورة التي كان الدين يعتمد عليها اليونانيون، فبدأت تلك الأساطير تتلاشى رويداً رويداً عندما صعد نجم التفكير العلمي والفلسفي في اليونان.

الدين في فلسفة عمالقة اليونان (سقراط، أفلاطون، أرسطو)

سقراط:

كان سقراط مدركاً منذ شبابه أن صورة الآلهة المتشكلة من الأساطير صورة خاطئة وليس لها وجود في ذهنه، فراح يعلم تلاميذه أن تلك الأساطير ما هي إلا عبارات ملفقة عن الآلهة ومن الضروري إقامة التصورات والعقائد الدينية على العقل وليس على التسليم الساذج بالعقائد والطقوس الموروثة³¹، فلم يكن سقراط ملحداً بالآلهة بل كان يؤمن بإله واحد وبالعناية الإلهية، فمن تعاليمه وجوب الاهتمام بأنفسنا وشكر العناية الإلهية، فوعينا لذاتنا هو جوهر ذاتنا، والتقوى من الفضائل الأساسية، وأول شروطها النزوع نحو ما هو إلهي³²

الإله هو العقل السامي المسؤول عن نظام العالم، بالرغم من أن نظرية سقراط في خلق العالم مشوشة بعض الشيء، إلا أنه يؤمن بقوة عاقلة كانت أساساً في تكوين المخلوقات، ودلالة ذلك الجسم البشري الذي نظمت أعضاؤه بطريقة تتيح لها القيام بوظائفها على أكمل وجه مما يثبت أنها من صنع قوة عاقلة، وكل الأحداث التي تحدث في الكون تحدث بموجب هذه القوة العاقلة.

الإنسان يتميز بأن له علاقة خاصة مع الإله، العقل الإنساني بالنسبة لسقراط هو المتحكم في الجسم شأنه شأن الإله الذي يتحكم في حركات العالم، فالعقل الإنساني يعمل بنفس مبدأ العقل الإلهي لكنه أقل منه، العقل الإنساني هو دلالة على وجود الإله لأنه ينعكس فيه العقل الإلهي والحكمة الإلهية.

*-أفلاطون:

هل يعتبر أفلاطون فيلسوفاً أو مصلحاً دينياً وسياسياً؟ إذا لم يكن أفلاطون فيلسوفاً فمن يكون فيلسوفاً إذا...؟ ونذكر مقولة وايتهد الشهيرة "ما الفلسفة الأوروبية الحديثة إلا تعليقات على هوماش فلسفة أفلاطون"، لكن لا أحد يمكنه إنكار العلاقة القوية التي ربطت أفلاطون بالدين، وبالدين الأورفلي على وجه التحديد. فمقولة خلود النفس وحلول النفس في البدن الذي يعتبر سجن لها وفكرة التناسخ الموجودة في فلسفته ما هي إلا أفكار دينية ورثها من بيئته الأولى أو ديانتته الأصلية.

وقد نجح أفلاطون في بلورة فكرة التوحيد وتثبيت وجود إله واحد صانع هذا الكون ومنظمه، وعلى العكس من السفسطائيين نادى بأن الإله (المثال) وليس الإنسان مقياس الأشياء

جميعها.³³ رفض ما ألحقته الأساطير بالآلهة وما رواه هوميروس وهسيودوس وغيرهم من الشعراء بالآلهة من أكاذيب، فقال إن كل شيء نسبوه للآلهة يتناقض مع طبيعتها، لذلك طالب الدول أن تنسب للإله الصفات التي تليق به كصنع الخير، أما الشر فعلينا أن نبحث له عن مصدر آخر.

كما رفض أفلاطون الإلحاد وإنكار العناية الإلهية وقد وضع في جمهوريته عقاب للإلحاد يتفاوت بين النفي والسجن إلى الإعدام. وطالب بأن تنشأ لذلك محكمة للتفتيش عن العقائد. وكان أول من طالب بذلك مع مطالبته بإصلاح الديانة اليونانية وتخليصها من الخرافات التي علقت فيها لذلك طرد الشعراء من جمهوريته ومنع الناس من ترديد شعرهم الكاذب الذي يفسد عقول الناشئة.

فهل يعد أفلاطون مصلحاً دينياً، أم أنه بتجريده للإله عن كل الصور البشرية التي وضعت له وعن صفات الكائنات الطبيعية، يكون قد أسس لديانة عقلانية تخلو من التشبيهات البشرية...؟

من الواضح أن الديانات السماوية وغير السماوية التي جاءت بعد أفلاطون أحبت وأحبت مثله، فقد وجدت في نظرياته تأسيساً نظرياً لمعتقداتها، ولم تحب أرسطو بنفس المنزلة فأرسطو أكثر مادية وعلمية من أفلاطون.

لم يثق أفلاطون بالحواس وعالم المحسوسات ويرى أننا لا نصل إلى الحقيقة إلا بانتقال العقل من إدراك عالم المحسوسات إلى إدراك عالم المعقولات "نهضة النفس إنما تحصل بالدرس الذي يرمي إلى اجتذاب العقل من الحسيات إلى اليقينيات، ومن المنظورات إلى غير المنظورات والأبديات" (محاورة الطيمارس).

راح أفلاطون يتحدث عن ذلك العالم الخالد "عالم المثل" فذهب فكره إلى وجود إله صانع وإلى صور وأمثلة أزلية لا تتغير، علم المثل هو التقوى الحققة، والعدالة التامة، والجمال في ذاته، فعالم هو وحده العالم الحقيقي³⁴

كان يرى أفلاطون أن لا بد من وجود صانع لهذا الكون، وليس خالقاً، فالعالم لم يُخلق من العدم وإنما صممه الإله طبقاً لنموذج الذي أسماه أفلاطون "الحي بذاته" فالإله ينظم العالم المنظور وعيناه تحدقان بالنموذج الأمثل في عالم المثل أي في مثال الخير، وهكذا يكون أفلاطون قد وصل إلى أسى تصورات عن الإله الصانع المقترن بمثال الخير.³⁵

هناك الإله والصانع في محاورة الطيماوس يصنع الأشياء بتأمله في الحي في ذاته، أي هناك شيء أعلى من الصانع يقلده الصانع حين يصنع الأشياء وهو المثل، وأهم هذه المثل على الإطلاق هو مثال الخير، وليس واضحاً لدى أفلاطون إذا كان يساوي بين الإله وبين مثال الخير، ولذلك علق تسلياً بقوله "أن فكرة الصانع في محاورة طيماوس فكرة أسطورية غامضة، بينما نجد فكرة مثال الخير بوصفه علة الوجود فكرة واضحة في الجمهورية، فالأفضل أن نأخذ بالرأي الأول".³⁶

لا يوجد أدلة تكفي للقول بأن أفلاطون اكتشف عقلياً وجود الإله الواحد وآمن به، ففي محاورة طيماوس أكد على وجود آلهة ثانوية يدعوها الإله الصانع لمعاونته في عمله، واعتبر أيضاً أن نفس العالم والنفوس الإنسانية هي نفوس إلهية بالمعنى اليوناني للكلمة، مما جعل عبد الرحمن بدوي يقول: بأن فكرة الصانع عند أفلاطون ليس لها معنى حقيقي، وإنما هي فكرة أسطورية تكاد تكون تماماً مثال الخير في شكل أسطوري، فيجب أن تفسر مجازياً.³⁷ أرسطو:

لم يكن أرسطو متديناً أو مهتماً بالدين كما كان معلمه أفلاطون، بل كان عالماً وفيلسوفاً أقرب إلى المادي منه إلى المثالي. ولكن فلسفته وعلمه لم يخلوا من أثر للمثالية. وقد أوقعته مثاليته القائلة بأن لكل شيء وحتى للمادة وللكون هناك علة غائية يسير نحوها بوعي وبلا وعي منه، ولم يتحرر أرسطو من مثالية أفلاطون تماماً، فالعلة الغائية لديه هي الكمال والجمال والحق.³⁸

وفي الطرف الآخر يقول إن المادة يجب أن توجد بحالة ما قبل عملية أي إنتاج، فالشيء لا يأتي أبداً من العدم، بل هو في حركة دائمة من الوجود بالقوة إلى تحقيق وجوده بالفعل. ولا بد من محرك أول لهذه الحركة لا يصيبه التغيير ولا الفساد فابتدع فكرة "المحرك الذي لا يتحرك" لأن كل حركة فساد وتغيير.³⁹

الإله هو الموجود الأوحد الخالد غير المتغير، وهو وجود متحقق بالفعل أو فعل خالص تام الوجود. وهو ضرورة لازمة لوجود العالم ولكنه لم يخلق المادة ولا العالم بإمادهما بالحركة الأولى فقط. لأن وجود المادة الأولى شرط ضروري كما هو وجود الإله سواء بسواء لقيام العالم. فالمادة والعالم قديمان ووجودهما قديم بقديم الإله.

فالإله في نظر أرسطو هو المحرك الذي لا يتحرك ويمد العالم بحركته الأولى ثم يتركه يتحرك بالتلامس والإنبات، ولا يعتني بالعالم أبداً فهو مكتفٍ بتأمل في نفسه وكل علاقة الإله في العالم هي علاقة اشتها من قبل العالم نحو الإله الذي يشتهي العالم التمثل به ويسعى نحوه، فالناقص يشتهي الكامل، أي العلم يشتهي الإله لا العكس.⁴⁰

ليس الإله لدى أرسطو إلهاً شخصياً ولا يمكن أن يكون كذلك لأنه ملته ومكتفٍ بتأمل نفسه والذي ليس بحاجة إلى أحد إلا نفسه. فقد أنكر أرسطو العناية الربانية أي اهتمام الإله بشؤون العالم، كما أنكر الخلق، فالمادة الأولية قديمة قدم الإله نفسه.⁴¹ لم تستغ الأديان فلسفة أرسطو فهو ينكر ثلاث أمور تتعلق بالإله: ١- أن الإله خالق، بل قال بقديم المادة والعالم.

٢- أنكر العناية الإلهية أي اعتناء الإله بالعالم.

٣- أنكر خلود النفس وقال بانحلال النفس وموتها عندما تفصل عن الجسد بالموت.

لذلك لم يقبله الفلاسفة واللاهوتيون المسيحيون في بداية القرون الوسطى مثل القديس اغسطينوس الذي مال باتجاه أفلاطون والأفلاطونية الجديدة وكذلك باقي الفلاسفة المسيحيين المبكرين، مع أنهم أحبوا وأخذوا بمنطقه. وحاول الفلاسفة المسلمون الذين كانوا يعتبرون أرسطو المعلم الأول فهمه وتوفيقه مع ما جاء في القرآن، على اعتبار أن القرآن يدعو إلى التفكير والاعتبار والنظر⁴²، بعضهم قبل قدم المادة والعالم ولكنهم أصروا على أن الله هو الخالق وليس الصانع وأصروا على الخلود (خلود النفس)، إلى أن جاء ابن رشد فقبل صراحة بقديم العالم وبالخلود للعقل الجمعي لا الشخصي، مما عرضه إلى محنة وهجوم رجال الدين عليه وحرق كتبه ونفيه.

بتأثير من الفلاسفة المسلمون ومن الترجمات اليونانية المباشرة إلى اللاتينية انفتح العالم المسيحي على أرسطو، بدأ هذا الانفتاح مع إلبرت الكبير الذي كان أرسطياً ولكنه لم يتفق مع أرسطو في كل الأمور الإيمانية، فحاول تلميذه الألمي توما الأكويني تبني وجهات نظر أرسطو ولكنه حاول تعميم أو تنصير أرسطو في الوقت عينه ليقوله من اللاهوت والفكر المسيحي، ونجح في جعل الكنيسة وأوروبا تقبل علوم وفلسفة أرسطو، فغادرت أوروبا الزمن المثالي الأفلاطوني لتدخل في الزمن المادي الأرسطي، فبدل من مثالية أفلاطون واغسطينوس تبنت

أوروبا شيئاً فشيئاً سببية أرسطو الذي قربها من الثورة العلمية التي قامت في القرن السادس عشر والتي اعتمدت السببية لفهم ظواهر الطبيعة.

موقف أرسطو (العلماني) من الأديان اليونانية كان موقفاً حاسماً في إضعافها ومن ثم تجاوزها باتجاه السببية التي تشرح الظواهر الطبيعية شرحاً علمياً بدل تلك الشروحات الأسطورية التي سادت في الديانات اليونانية.

*-موقع المدارس الهلنستية الفلسفية من الدين:

بعد أن وجه أرسطو طعنة نجلاء للأسطورة والدين اليونانيين، بوضعه لقوانين المنطق ولتفسير الظواهر بالسببية، كانت الحياة السياسية في انحدار وحاول أعداءه تلفيق تهم ضده كما فعلوا لسقراط، فترك أثينا واختفى في الجزر اليونانية عند أخته بدون أن يخبر أحد بمكانه. ومع أن التقوى أخذت حيزاً كبيراً من تفكير سقراط وأفلاطون، إلا أن أرسطو لم يولمها أهمية كبرى بل كانت فضيلة الاتزان مركزاً لتفكيره، فقد عرف الفضيلة بأنها وسط ذهبي بين التفريط والإفراط⁴³. لذلك لم يدخل أرسطو في حرب مع الدين اليوناني بل تجاوزه باتجاه تنمية العقل وقدراته.

لم تظهر فلسفة أو فيلسوف بحجم أرسطو فيما بعده في اليونان، بل نشأت مدارس فلسفية انشغلت وركزت على الأخلاق، كالمدرسة الوراقية والمدرسة الابقورية والكلبية والشكية، فقد حاول اليونانيون بعدما ساءت السياسة والديمقراطية وكان الأسكندر المقدوني أن يشقوا طريقاً لخلاصهم الفردي ولم يعودوا يهتموا بتفسير الوجود والكون والإنسان، بل ماذا نعمل لننجو من الظروف الحالية؟

راحت الرواقية بمؤسسها زينون في أواسط القرن الثالث قبل الميلاد ومن تبعه من تلاميذه تركز على الفضيلة والإنسان الأفضل وأهمها بنظرهم اكتساب فضيلة الحكمة، ونادوا بسيطرة العقل على باقي الحواس وعلى الغرائز والملاذات في سبيل اكتساب الحكمة. فالعقل والعقلانية والحكمة بالنسبة لهم أرفع المناصب التي يمكن للإنسان بلوغها والتي يمكن أن توفر له قدراً من السعادة. وقد قالوا بالإنسان "حيوان أخلاقي عاقل" مع أنهم رفضوا نظرية المثل الأفلاطونية لكون المثل ليست أشياء موجودة، فحكمهم ليست مثالية بل واقعية.

لذلك اعتبروا مثلهم مثل الأبيقوريين أن الإله كيان مادي جسي ولكن مادته ليس مثل باقي الكائنات. فالإله الرواقي باطن في جميع الموجودات ويوجه تطورها مهما بلغت ضآلتها، حتى

أدق التفاصيل (الغائية) والكون كله كائن حي، والإله بالنسبة للكون هو قوة حياة تزوده بالحركة والتوجه بوجودها فيه.

لذلك يتمثل الإله الرواقي بأحد مبدئين ١- هو المادة غير المحددة أو الفعالة، وهي محل الفعل وموضع التأثير والإله هو العقل الكون أو النار التي تمنح الأشياء جوهرها وصورها، أو النفس التي تشكل المادة بحسب خطتها.⁴⁴

٢- طوروا مفهوم أن الإله كنار حية، أو بذرة تنبثق منها الأشياء بمقتضى الضرورة لا الاتفاق. آمنوا بفكرة "العود الأبدي" لأن للكون دورة حياة متكررة، وهناك دورة لا نهائية من التكرارات، تبدأ من حيث يكون الكل ناراً، وتمر عبر مرحلة تولد العناصر وحتى مرحلة انبثاق العالم الذي نعرفه، إلى أن تصل إلى مرحلة "الاحتراق العام".

"حاولوا الرواقيون أن يجعلوا من الأساطير رموزاً للحقائق العلمية، وأن يجعلوا من الشعائر باعثاً إلى الحياة الفاضلة، وكان تفسيرهم تفسيراً طبيعياً، فالآلهة التي يذكرونها تمثل عندهم الأجسام السماوية والعناصر والنبات"⁴⁵

ربما جاءت أقوى الهجمات التي شنتها الفلسفة على الأساطير والأديان اليونانية من قبل أبيقور مؤسس المدرسة الأبيقورية التي تزامن وجودها مع وجود المدرسة الرواقية في أواسط القرن الثالث قبل الميلاد، فقد وضع أبيقور نصب عينيه أن سعادة الإنسان لن تتحقق على هذه الأرض ولن يبلغ الفضيلة إلا بالتحرر من أمرين:

- ١- الخوف من الآلهة وتقديم القرابين والعبادات لها،
 - ٢- الخوف من الموت، وقد قال أبيقور جملته الشهيرة "لماذا تخافون من الموت فإذا أتى نكون غير موجودين وإذا كنا موجودين فيعني أنه ليس موجوداً". وكان أبيقور قد ربط الخوف من الآلهة مع الخوف من الموت، فقد نشأت كثير من الأديان بدافع الخوف من الموت والفناء.⁴⁶
- صحيح أن أبيقور أقام فلسفة مادية ولكنه لم ينكر وجود الآلهة، ما أنكره اهتمامها بحياة البشر وحاجتها إلى العبادات وتقديم القرابين، فبرأيه أن الآلهة تعيش في نعيمها بعيداً ولا تأبه بحياة وسلوكيات البشر، لذلك علمهم التحرر من الآلهة في حياتهم ليعيشوا سعداء وأن لا يخافوا من الموت لأن الخوف يقال استمتاعهم ومتعتهم في هذه الحياة.

كانت الأبيقورية مذهباً فلسفياً طبيعياً تطالب بالعيش ببساطة بحسب الطبيعة البشرية دون إفراط وتفريط، فنشدان الإنسان للذة ليس حراماً بل مكتوباً ومتسقاً مع الطبيعة

ولكن ليست تلك اللذة الغرائزية والنهمة والجشعة بل هي لذة عقلية تدرك حاجات الإنسان وغرائزه ولا تمنعه من تلبيتها باعتدال.⁴⁷

إن الأمرين الرئيسيين التي تقوم عليهما الفكرة الدينية هما: وجود إله أو آلهة ترعى حياتنا وتنظمها، ووجود الخلود ما بعد الموت، بإنكار الأبيقورية هاذين الأمرين (لم ينكروا وجود الآلهة) بل أنكروا اهتمامهم بنا، وإنكار الخلود (خلود النفس) أضعف الأبيقوريون الفكر الديني اليوناني الذي كان يؤمن برعاية الآلهة لبني البشر، وبمطالبتهم أن يتحرر البشر من الخوف من الموت، ألغى وحرر الأبيقوريون البشر من عبء كبير كان يقع على عاتقهم.⁴⁸

رويداً رويداً سحبت الفلسفة اليونانية في تطورها لأفكار ولرؤوس عقلانية متنوعة البساط من تحت أرجل الفكر الديني اليوناني، فلم يعد يعتبر فكراً إنما مجموعة من المعتقدات والآراء الأسطورية المرتكزة على خيالات الإنسان وخوفه من المجهول.

توافق وجود المدرسة أو النزعة الشكية "Scepticism" زمانياً مع وجود المدرستين الرواقية والأبيقورية: فهل كانت الشكية نتيجة حتمية لتطور الفلسفة اليونانية أم أنها جاءت في سياقها الطبيعي؟ باختصار هل كان الشك منهجاً ثم أصبح مذهباً، أم أن العكس صحيح، أي ظهر المذهب الشكي فأصبح منهجاً؟

يعتبر بيرون (365-275 ق.م.) مؤسس نزعة الشك⁴⁹ في القديم وأهم شخصية من الشكاك في الفلسفة الهلينستية، وبعد تحصيل وتجوّل في العالم القديم اعتنق بيرون "اللا أدبية" أي الامتناع عن إبداء الحكم. فأنكر بريون أن يكون هناك أمر جميل أو قبيح، عادل أو غير عادل. وأن ما يسود السلوك البشري هو التقاليد والعادة، لأنه لا شيء في ذاته أكثر من هذا وذلك.

أفادت النزعة الشكية كل من العلم والفلسفة ليقدما برهاناً قوياً راسخاً لم يدعاهما، ولكنها أصابت الفكر الديني الوثوقي بمقتل، فالمعتقدات الدينية التي تدعي امتلاك الحقيقة مشكوك في صحتها وفي أمرها، فلم يعد هناك معتقد ديني وثوقي بمنأى عن التشكيك فيه، والحكم مؤجل عليه.

أما أنواع الشك الذي مارسه الشكاكين فهو متنوع، ابتداء من الشك الأخلاقي إلى الشك الجدلي إلى الشك التجريبي، فهناك من يُدعون دغمائين، ويعتقدون بأنهم اكتشفوا

الحقيقة، أقرزوا بصعوبة مهمة إدراك الأشياء وفهمها، فكيف لا يكون الشك مكاناً في حياتنا؟

عادة ما يوصف المؤمنون بالدغمائيين لأنهم يدعون أن معتقداتهم هي الحقيقة بالذات، فكيف لا يساورهم الشك بهذه المعتقدات ولا يذهبوا إلى إثباتها بعدما شكوا بصحتها؟ فالإيمان هو تسليم وهو بعكس الشك تماماً، لذلك قوة الشك تأتي من التساؤل هل يمكننا أن نعرف، وإذا عرفنا هل يمكننا أن نثبت معرفتنا بالشيء، وإذا أثبتنا معرفتنا، فهل يمكننا أن ننقل هذه المعارف إلى غيرنا...؟ هذا ما قاله جورجياس الذي يعتبر من الفلاسفة الشاكين. تطور الشك عبر الزمن، فها هو اغسطسنوس الفيلسوف المسيحي القروسطي يأخذ الشك منهجاً وطريقاً ليصل إلى الحقيقة، وها هو الغزالي الفيلسوف المسلم يشك في المعرفة التي تأتي بها الحواس والمعرفة التي يأتي بها العقل، وفي العصور الحديثة يعتبر هيوم الذي حاول أن يبين أن أكثر مقولات التفكير الأساسية مثل الجوهر والعلّة وهمية، ومن ثم فإنه يقوض نسيج المعرفة، وعادة ما تنتهي النزعة الذاتية إلى نزعة الشك⁵⁰، وديكارت الفيلسوف الفرنسي بدأ بالشك في وجوده، وهكذا رافق الشك العلم والفلسفة ولكنه لم يرافق المعتقد الديني إلا فيما ندر.

ولم يترك الشاكون شكهم دون حجج وبرهنة وتساؤلات فقد قدم بيرون مؤسس الشكية نفسه عشرة حجج على شكه، يمكن اختزالها في أربع حجج، اثنتان تتعلق بالذات العارفة، واثنان بالموضوع المعروف، وقد حرص الشاكون على عدم الوقوع بالتناقض في الحكم، فهل وقعوا هم أيضاً فيما احتاطوا من الوقوع فيه؟ فقد رفضوا كل حجة وكل محك أو علة من شأنه أن يجعل المعرفة الإنسانية ممكنة.

ما يهمنا هنا هو أن الشك اعتبر نقداً عميقاً لكل معرفة بما فيها المعرفة الدينية اليونانية المبنية بدون قاعدة معرفية أو برهانية.

خاتمة:

استعرضنا تاريخ الفكر الديني عند اليونان منذ الأساطير والأديان اليونانية القديمة بمجملها حتى الفترة الهلنستية، وفي المقابل استعرضنا نشأة الفلسفة والعلم عند اليونان وتاريخ احتكاكهما بهذا الفكر الديني، وحاولنا الإجابة على السؤال المهم وهو (مشكلة البحث)

هل استطاعت الفلسفة اليونانية أن تقوض الفكر الديني عند اليونان، وهل نجحت في التغلب عليه ومن ثم إزالته...؟

لذلك رحنا نبحث في المحطات الكبرى من تاريخ الفلسفي اليوناني واحتكاكه بالفكر الديني، لم نجد مجابهة كبرى واحدة مباشرة بين الفكر الديني عند اليونان والفكر الفلسفي (ربما متأخراً مع الأبيقوريون مباشرة ونسبياً، الذين دعوا إلى عدم الخوف من الآلهة وعدم الخوف من الموت، مع أنهم لم ينكروا وجود تلك الآلهة)، فما وجدناه هو عملية تقويض طويلة الأجل قامت بها الفلسفة للفكر الديني لكونها عقلانية وناقدة ومشككة وتطالب ببرهان على كل ما يقال وكل ما يعتقد به، وربما كانت مساهمة الفلسفة الكبرى في تلك المعركة بدعماً لظهور العقل العلمي عند الفلاسفة الأيونيين الذين راحوا يبحثون عن الإجابة على سؤال ما هو أصل الكون؟ في الكون والمادة ذاتها وفي ازدهارهم للإجابة الدينية الجاهزة التي كانت تنسب كل شيء للآلهة.

ففي النتيجة لم تقوض الفلسفة اليونانية الفكر الأسطوري والديني اليوناني بشكل كامل ولم تخلعه من جذوره، بل تعايشت معه واستفادت منه كما فعل كل من فيثاغورس وسقراط وأفلاطون على سبيل المثال عندما استعملوا الأسطورة والدين لغايات تعليمية وللدعوة إلى الفضيلة.

ما فعلته الفلسفة بالحقيقة هو توجيه ضربات متلاحقة إلى العقل الأسطوري والفكر الديني، بمحاولاتها تفسير نشأة الكون تفسيراً فلسفياً أو علمياً، فأصبحت بديلاً عملياً ومقنعاً للفكر الديني في عقول المثقفين اليونانيين وليس العامة وباقي الشعب الذي استمر في التدين والايمان بالفكر الديني والاعتقاد والركون والاطمئنان إلى معتقداته الدينية. ولم يزل الفكر الديني اليوناني بشكل كامل إلا مع ظهور المسيحية في القرون الأولى الميلادية واعتناق اليونانيون للدين المسيحي في غالبيتهم، فقد عوضوا ديناً بدين جديد أخذ منهم أساطيرهم القديمة وعمدهم وأدخلهم إلى ديانة جديدة كانت هي بدورها قد دخل إليها بعض تلك الأساطير اليونانية وأهمها أسطورة دونيسيوس الذي يسفك دمه ويموت ويقوم في كل سنة مع تجدد الحياة.

لم نقلل من أهمية الفلسفة في نشر الوعي والتنوير، فقد قامت الفلسفة بعمل جبار ليس لليونانيين فقط، بل للعالم القديم كله بإفساح مجال للعقل أن يفكر ويتفلسف وللعلم أن يولد ويتطور والمعرفة أن تنتشر وأن تنقل الأنوار إلى أرجاء العالم الهلنستي القديم.

*-الهوامش والإحالات:

- ¹ فراس السواح: دين الإنسان، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، سوريا، ط1، 1992، ص 20
- ² المرجع نفسه، ص 20
- ³ عبد المعطي شعراوي، أساطير إغريقية، الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 1882، ص 13
- ⁴ المرجع نفسه، ص 18
- ⁵ المرجع نفسه، ص 29
- ⁶ د. مصطفى النشار: تاريخ الفلسفة اليونانية، الجزء الأول، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1998، ص 101
- ⁷ س.م بورا: التجربة اليونانية، ترجمة: د. أحمد سلامة محمد السيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 1989، ص 78
- ⁸ د. عزمي طه السيد: الوجه الآخر للفلسفة "مدخل معاصر"، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، ط1، 2015، ص 66
- ⁹ د. عبد المعطي شعراوي: أساطير إغريقية، أساطير الآلهة الصغرى، مكتبة الأنجلو المصرية، الجزء الثاني، ط1، 1995، ص 103
- ¹⁰ د. توفيق الطويل: قصة النزاع بين الدين والفلسفة، ط2، مكتبة مصر، القاهرة، 1958م، ص 61
- ¹¹ ثروت عكاشة: الإغريق بين الأسطورة والإبداع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، القاهرة، 1994، ص 19
- ¹² مها محمد السيد: الآلهة والأساطير اليونانية، مكتبة المهتدين الإسلامية، ط1، الإسكندرية، 2002، ص 5
- ¹³ عصمت نصار: الفكر الديني عند اليونان، دار الهداية للطباعة والنشر، القاهرة، 2015، ص 57
- ¹⁴ خزعل الماجدي: المعتقدات الإغريقية، دار الشروق، عمان، 2004، ص 95
- ¹⁵ ب. كوملان: الأساطير الإغريقية والرومانية، ترجمة: أحمد رضا محمد رضا، مراجعة محمود خليل النحاس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992

- ¹⁶ المرجع نفسه، ص 15، ص 16
- ¹⁷ كيتو: الإغريق، ترجمة: عبد الرازق يسري، مراجعة، محمد صقر خفاجة، دار الفكر العربي، القاهرة 1962، ص 257
- ¹⁸ إبراهيم سكر: الأساطير الإغريقية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط 1، 1996، ص 39، 40
- ¹⁹ برتراند راسل: تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الأول، الفلسفة القديمة، ترجمة: د. زكي نجيب محمود، مراجعة: د. أحمد أمين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1957، ص 47
- ²⁰ كريم متى: الفلسفة اليونانية، مطبعة الإرشاد القومي، بغداد، 1971، ص 85
- ²¹ د. أحمد فؤاد الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ط 1، 1954، ص 78
- ²² د. عبد الجليل كاظم الوالي: الفلسفة اليونانية، عمان، دار الوراق للنشر والتوزيع، ط 1، 2009، ص 82
- ²³ المرجع نفسه، ص 83
- ²⁴ برتراند راسل: تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الأول، ص 74
- ²⁵ محمد جديدي: الفلسفة الإغريقية، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط 1، 2009، ص 110
- ²⁶ برتراند راسل: الفلسفة الغربية، الكتاب الأول، ص 60
- ²⁷ أحمد فؤاد الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، دار إحياء الكتب العربية، ط 1، 1954
- ²⁸ كريم متى: الفلسفة اليونانية، ص 36
- ²⁹ د. محمد على أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي، الفلسفة اليونانية، الجزء الأول، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1995، ص 103
- ³⁰ أميرة حلي مطر: الفلسفة عند اليونان، الجزء الأول، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1986، ص 133
- ³¹ د. عصمت نصار: الفكر الديني عند اليونان، ص 139، 140
- ³² جورج سارتون، تاريخ العلم، الجزء الثاني، الترجمة العربية، الطبعة الثالثة، 1978، ص 74
- ³³ أفلاطون: الطيماسوس، ترجمة الأب فؤاد جرجي بربارة، تحقيق وتقديم: ألبير ريفو، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق، 1968، ص 207
- ³⁴ جفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة: د. إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة: د. عبد الغفار مكاي، سلسلة عالم المعرفة، 173، الكويت، مايو، 1993، ص 59
- ³⁵ مصطفى النشار: فكرة الألوهية عند أفلاطون، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 2، 1985، ص 229
- ³⁶ عبد الرحمن بدوي: أفلاطون، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، 1979، ص 179

- ³⁷ المرجع نفسه، ص 179
- ³⁸ يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012، ص 165
- ³⁹ فردريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة، المجلد الأول، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، المشروع القومي للترجمة، ط 1، 2002، ص 224
- ⁴⁰ المرجع السابق، ص 336
- ⁴¹ المرجع السابق، ص 336
- ⁴² إبراهيم محمد إبراهيم صقر: مشكلات فلسفية، تصدير: عاطف العراقي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997، ص 23
- ⁴³ ناجي عباس التكريتي: فلسفة الأخلاق بين أرسطو ومسكوبه، دار دجلة، عمان، 2012
- ⁴⁴ عثمان أمين: الفلسفة الرواقية، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ط 1، 1945، ص 132
- ⁴⁵ المرجع السابق، ص 148
- ⁴⁶ الشيخ كامل محمد عويضة: أبيقور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1994، ص 43
- ⁴⁷ سعيد ناشيد: الطمانينة الفلسفية، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، 2019، ص 46، 47
- ⁴⁸ ولتر ستيس: تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم جاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1984، ص 289
- ⁴⁹ زكي نجيب محمود وأحمد أمين: قصة الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي، 2018
- ⁵⁰ ولتر ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص 293

*- قائمة المراجع:

1. فراس السواح: دين الإنسان، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، سوريا، ط 1، 1992
2. عبد المعطى شعراوي، أساطير إغريقية، الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط 1، 1882
3. مصطفى النشار: تاريخ الفلسفة اليونانية، الجزء الأول، دار قباء للطباعة والنشر والنزيع، القاهرة، ط 1، 1998
4. س.م. بورا: التجربة اليونانية، ترجمة: د. أحمد سلامة محمد السيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط 1، 1989

5. د. عزمي طه السيد: الوجه الآخر للفلسفة "مدخل معاصر"، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، ط1، 2015
6. عبد المعطي شعراوي: أساطير إغريقية، أساطير الآلهة الصغرى، مكتبة الأنجلو المصرية، الجزء الثاني، ط1، 1995
7. توفيق الطويل: قصة النزاع بين الدين والفلسفة، ط2، مكتبة مصر، القاهرة، 1958م
8. ثروت عكاشة: الإغريق بين الأسطورة والإبداع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، القاهرة، 1994
9. مها محمد السيد: الآلهة والأساطير اليونانية، مكتبة المهتدين الإسلامية، ط1، الإسكندرية، 200
10. عصمت نصار: الفكر الديني عند اليونان، دار الهداية للطباعة والنشر، القاهرة، 2015
11. خزعل الماجدي: المعتقدات الإغريقية، دار الشروق، عمان، 2004
12. ب. كوملا: الأساطير الإغريقية والرومانية، ترجمة: أحمد رضا محمد رضا، مراجعة محمود خليل النحاس، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1992
13. كيتو: الإغريق، ترجمة: عبد الرازق يسري، مراجعة، محمد صقر خفاجة، دار الفكر العربي، القاهرة 1962
14. إبراهيم سكر: الأساطير الإغريقية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 1996
15. برتراند راسل: تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الأول، الفلسفة القديمة، ترجمة: د. زكي نجيب محمود، مراجعة: د. أحمد أمين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1957،
16. كريم متى: الفلسفة اليونانية، مطبعة الإرشاد القومي، بغداد، 1971
17. عبد الجليل كاظم الوالي: الفلسفة اليونانية، عمان، دار الورق للنشر والتوزيع، ط1، 2009

18. أحمد فؤاد الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1954
19. محمد على أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي، الفلسفة اليونانية، الجزء الأول، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1995
20. أميرة حلمي مطر: الفلسفة عند اليونان، الجزء الأول، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1986
21. جورج ساترون، تاريخ العلم، الجزء الثاني، الترجمة العربية، الطبعة الثالثة، 1978
22. أفلاطون: الطيمائوس، ترجمة الأب فؤاد جرجي بربارة، تحقيق وتقديم: ألبير رثفو، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق، 1968
23. جفري بأندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة: د. إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة: د. عبد الغفار مكاوي، سلسلة عالم المعرفة، 173، الكويت، مايو، 1993
24. مصطفى النشار: فكرة الألوهية عند أفلاطون، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 1985
25. عبد الرحمن بدوي: أفلاطون، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، 1979
26. فردريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة، المجلد الأول، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، المشروع القومي للترجمة، ط1، 2002
27. يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة 2012،
28. إبراهيم محمد إبراهيم صقر: مشكلات فلسفية، تصدير: عاطف العراقي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997
29. ناجي عباس التكريتي: فلسفة الأخلاق بين أرسطو ومسكويه، دار دجلة، عمان، 2012
30. عثمان أمين: الفلسفة الرواقية، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ط1، 1945
31. الشيخ كامل محمد عويضة: أبيقور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1994

-
32. سعيد ناشيد: الطمأنينة الفلسفية، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2019
33. ولتر ستيس: تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم جاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1984
34. زكي نجيب محمود وأحمد أمين: قصة الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي، 2018